مع العرّافين والمنجمين

للأستاذ محمد على الطعمى

عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان لأبى بكر رضى الله عنه غلام يخرّج له الخراج ، وكان أبو بكر يأكل من خراجه ، فجاء يوماً بشىء فأكل منه أبو بكر ، فقال له الغلام ، أتدرى ما هذا ؟ فقال ما هو ؟ قال كنت تكهّنت لأنسان فى الجاهلية وما أحسن الكهانة ، إلا أنى خدعته فلقينى فأعطانى بذلك هذا الذى أكلت منه ، فأدخل أبو بكر رضى الله عنه يده فى فيه ، فقاء كل شىء فى بطنه » .
أخرجه البخارى

كان أبو بكر أول رجل آمن بالنبى عليه الصلاة السلام واحتضن دعوته فى شغف وسخاء وإخلاص ثم تلقف تعاليمه الإنسانية الجديدة بالرضا والقبول والتنفيذ .

لم ترهبه حراب الطغاة من بنى عمومته ، ولم تزعجه سيوف قريش التى تحتفظ بتراثها الغابر . ومعبودها الحاضر ، مهما كلفها ذلك من ثمن ، غير أن أبا بكر ظل ثابتاً كالطود ، لم تؤثر فيه دعايات المتزمتين وطعنات المنحرفين .

ومهما يكن من شىء فقد أخلص أبو بكر للرسول إخلاصاً لم يعرف له التاريخ ضريباً ، وضحى فى سبيل تركيز الرسالة تضحية بلغت من الفدائية والبطولة شأوا بعيداً ، ورضى لنفسه أن يحاصر وأن يطارد ، وأن يشل نشاطه المالى والتجارى والأدبى ، حباً فى مبادىء محمد عليه الصلاة والسلام .

وفى البداية حاجّ الخصوم المترفين والسادة الساخطين ، وقلل من شأنهم وسخر من قوامهم ، وتحداهم فى عزة وصلابة وإيمان .

وفى موقف من مواقف الرسول الخالدة كذبه فيه القرشيون ، وصفق عليه الطغام والسفلة من قومه ، غير أن أبا بكر صمد لهم صموداً ، وهتف من أعماقه وبأعلى

صوته ، إن محمداً صادق وصادق فى كل ما قال وما سيقول ، فلا تعجب بعدئذ إن لقب بالصديق .

هذا الصديق أعظم من أن يعرف ، وأشهر من أن يكتب عنه ، ولسنا فى صدد ترجمة له ، وإنما نحن بصدد جانب واحد من جوانب شخصيته التى تكشف عن ورعه وزهده ، وخشيته الكبرى من دقائق الذنوب ، وصغائر المآثم .

إن غلام الصديق هذا ، مشغول بخراج يؤديه له ، وقد تعود أبو بكر أن يأ كل منه لأنه حلال خالص ، وفى لحظة من اللحظات أتى له بشىء ، أى شىء ، فأ كل منه واستراح .

ويعود الغلام مخاطباً الصديق « أتدرى ما هذا » ؟ فيقول له « ما هو » فيجيبه الغلام قائلا « كنت تكهنت لإنسان فى الجاهلية ، وما أحسن الكهانة إلا أنى خدعته ، فلقينى فأعطانى ذلك الذى أ كلت » .

ومعلوم لرجل كالصديق ، ومعلوم للناس جميعاً ، أن الكهانة ، وهى الإخبار بالمغيبات عن طريق دوران المندل ، وفتح الكتاب ، وضرب الرمل ، وقراءة الكف والكوتشينة ، معلوم أن ذلك كله حرام ، وأن التكسب به باطل ، ورجس من عمل الشيطان فماذا يصنع الصديق ؟

الصديق رجل رقيق القلب ، ورقة قلبه جعلته ينفر من الحرام ويتهيَّب لونه وطعمه ورائحته ، ولكن الحرام ملأ جوفه من غير علم فكيف السبيل ؟

أراد من فوره أن يتجنب الشبهات وأراد أن يتقى المحارم ، وأراد أن يلقن غلامه درساً قاسياً لن ينساه — ويعرفه أن دعوى التنجيم ليست حراما فحسب ، بل التنجيم نفسه حرام ، وما جاء بسببه من كسب فهو حرام .

أراد أن يفهمه ذلك عملياً ، فوضع أصبعه فى فمه ، وتقايأ الطعام — كل الطعام ، الذى أكله .

لاتعجب : فالصديق رجل عميق الإسلام ، عميق الإيمان ، عميق الخوف من الله .

« يا لخوف الصديق »

لقيمات أكلها من غير علم ، وبعد أن يعلم تأخذه رعشة ورعدة تجعله يثور على غلامه ، ويثور على فمه ، ويثور على بطنه ويخرج ما استقر فيها من طعام ، جاء عن طريق الكهانة والتنجيم .

وبعد :

فكم من منجمين مسهم طائف المال ، ودفعهم شره الكسب الحرام ، فافترشوا الأرض حتى ضاقت عليهم ، وزعموا لخلق الله البسطاء وغير البسطاء ، أنهم قادرون على كشف الغيب ، وقراءة المستور من المغيبات ، وفى أيديهم فقط تأليف القلوب وحضور المحبوب ، وإزالة الأوجاع ، ومعرفة الغائب على أى حال ؛ ومنهم رقعاء لهم أمكنة معلومة ، وسراديب مشهورة ، ودعواهم فيها أنهم يسخرون كل شىء ، ويستطيعون قضاء المتعسر من الأمور ، لأن الدنيا بين أيديهم كخاتم يحركونه فيتحرك ولله فى خلقه شئون .

والغريب أن لهؤلاء الدجاجلة ، ضحايا كثيرة وأناساً يقدسونهم ويصدقونهم ويغدقون عليهم الهدايا والأموال .

لو كان هؤلاء صادقين لأخبرونا عما فى بطن الأرض من ركائز ومعادن وكنوز ، ولو كانوا صادقين لاستكثروا لأنفسهم الخير ودفعوا عنهم الضر ، وما أصابهم ما يصيب الناس .

وأحرى لأولئك من ذوى الدعاوى الباطلة ، والكهانة الرعناء أن يتجنبوا هذا الرجل ، ويفضوا سوقهم الرائجة أبداً ، وعليهم أن يسلكوا مسالك الصدق والأمانة والورع رحمة بأنفسهم وبالمجتمع الذى يعيشون فيه ، ولهم فيما قصصنا من حديث أبى بكر الصديق موعظة وإحجام ؟